الافتتاحية

شيء صعب بلا شك أن تتحدث عن شيء لا يؤمن الآخرون بوجوده وتكون بذلك مضطراً لأن تحارب طواحين الهواء وحدك أو أن يكون معك المجانين فقط ، وأن تمشي في الطرق التي تحفرها بأظافرك وأن تبنيها وأن تسير فيها ليلاً ونهاراً ويوماً بعد يوم وعاماً بعد عام وأن تبحث عن الممكن والغائب وعن الخفي والغامض.

إن التوجه نحو احترام حقوق الأطفال المعاقين و تطوير تعليم الأطفال الصم باستخدام الدراما في التعليم ، وتطوير الكتب الدراسية الخاصة بالأطفال الصم شكلاً ومضموناً وكذا الاهتمام بالأطفال ضعاف السمع بشكل خاص. والإعلان عن قيام مسرح الطفل الأصم الموجه للأسوياء من أجل دمج الأطفال الصم في المجتمع والإعلان عن إقامة وزارة لمتحدي الإعاقة وكذا بث قناة متخصصة للإعاقة ، كل هذه الأشياء سالفة الذكر هي الغاية وهي الهدف الذي أسعى لتحقيقه وأريد له الولادة والحياة الحقيقية على أرض عالمنا العربي ......

إن هذه الدراسة التي أوجزها في كتابي هذا وليدة معاناة وحلم طال أمده ، وتعتبر مساهمتي بهذا الكتاب جزء من مشروع إنساني كبير ألا وهو تطوير تعليم الأطفال الصم والعمل على دمجهم داخل المجتمع بشكل فعال ليصبحوا فئة فاعلة في هذا المجتمع ، ولابد من حشد الجهود المخلصة والنوايا الحسنة الرامية إلى إعادة النظر في استراتيجية تعليم الأطفال الصم المتبعة داخل المؤسسات التعليمية الخاصة بهذه الفئة ..... وفي هذا الإطار فإنني أدعو إلى أن تستند عملية تعليم الأطفال الصم على استخدام الدراما باعتبار أن الدراما وبخاصة التمثيل

الإيمائي من أهم وسائل الاتصال الكلي التي يستخدمها الأطفال الصم للتفاهم والتواصل سواء مع بعضهم البعض أو مع أقرانهم الأسوياء ... وعليه فلابد من إعداد برامج تعليمية خاصة تتناسب وقدرات وميول هؤلاء الأطفال ولابد في هذا السياق أن تحظى الأنشطة التربوية داخل المؤسسات التعليمية الخاصة بهذه الفئة باهتمام كبير يصل إلى ٥٠٪ من إجمالي عدد الحصص الدراسية كما أقترح إقامة مسرح الصم للرقص المسرحي الموجه للأسوياء وأنشده من أجل حرية الطفل الأصم في عالمنا العربي وتحرره من كافة القيود النفسية والاجتماعية القاسية التي تفرضها إعاقته. وكذا من أجل دمجه داخل المجتمع بشكل إنساني راقي.

وقد تبدو فكرة الإعلان عن إقامة مسرح راقص للأطفال الصم فكرة غريبة ومستحيلة مجنونة. ولكنها ممكنة وناجحة بدرجة تفوق كل التوقعات وهذا ما توصلت إليه من خلال تكويني لفرقة (تجريبية) من الأطفال الصم للرقص المسرحي وقمت بتدريبهم من خلال ورش عمل استمرت عدة شهور، وأتذكر أنه في إحدى الحفلات وبعد انتهاء أعضاء هذه الفرقة التجريبية من تقديم أحد عروضها الراقصة سألني أحد الصحفيين ممن كانوا يحضرون الحفل: هل هؤلاء الأطفال صم حقاً ؟

وفي هذه اللحظة شعرت بأنني كطائر يحلق في السماء من فرط سعادتي بكلماته هذه ، فلقد كانت كلمات هذا الصحفي بمثابة شهادة نجاح لهذه التجربة وهذا الحلم، نعم فالأحلام النبيلة تتحقق في النهاية.

ومهما تعثر الإنسان في مشواره إليها فلا مستحيل على هذه الأرض طالما وجدت الإرادة الصلبة والنوايا الحسنة، واتجاهي في مسرح الأطفال الصم

الراقص هو أن تعتمد عروض الأطفال الصم على لغة التعبير الحركي ، لأن الحركة هي لغة كل البشر وبمقدور مثل هذه العروض الحركية أن تحقق التفاهم والتواصل بين الأطفال الصم وأقرانهم الأسوياء مما ينتج عنه دمج الأطفال الصم داخل المجتمع بشكل حضاري راقي وفي إطار فني بهيج ، وهذا الفكر فريد وجديد وعلى عكس الاتجاه السائد في العالم العربي لعروض الصم والذي يعتمد على العروض الإشارية أي العروض التي تعتمد على لغة الإشارة الخاصة بفئة الصم ، ومن هنا يأتي غموضها على المشاهد ولا تحقق هذه العروض الهدف المنشود منها على الإطلاق.

إذ أن ليس كل المشاهدين لعروض الصم الإشارية يجيدون لغة الإشارة وليسوا مطالبين بإجادتها وبالتالي فإن تلك العروض الفنية تفتقد لأهم عنصر من عناصر النجاح وهو التفاهم مما يترتب عليه عدم إدراك الجمهور للأحداث التي تدور على خشبة المسرح وفي المقابل يشعر فريق المؤديين من الأطفال الصم بعدم تفاعل الجمهور معهم الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى التنافر ما بين المرسل والمتلقي ، وهذا الأمر هو ما دفعني وبقوة للسعي والاجتهاد لاكتشاف لغة موحدة تقرب ما بين الأطفال الصم والأسوياء وتحقق دمجهم داخل المجتمع بشكل حضاري ولم أجد أفضل من هذه العروض التعبيرية الحركية إذ يعد التعبير الحركي كأي لغة والغرض من أي لغة هو التفاهم والتواصل ولغة الجسد هي أقدم لغة عرفها البشر كانت ولا تزال من أرقى وأجمل اللغات التي تعرف عليها الإنسان ويكمن سر جمالها أنها مشتقة من أصل الحياة ، فالحركة أساس الحياة وبالحركة يفرق الإنسان بين الجماد والكائن الحي.

ولكـي نجعـل الأطفـال الصـم يتحـدثون عـن كـل شـيء ولكـل النـاس فلابـد وأن نجعلـهم يتحـدثوا باللغـة الـتي يفهمهـا هـؤلاء النـاس أي أن محـور فلسـفة مسـرح الأطفـال الصـم الـراقص الجديـد (أن نجعـل الأطفـال الصـم يتحـدثون بـلا حـوار ونجعـل الأسـوياء يفهمـون بمجـرد أن يشـاهدوا ومـا دمنـا نبحـث عـن كيفيـة دمـج الأطفـال الصـم في المجتمـع باعتبـاره توجـه حضـاري قـومي وعـالمي فلابـد مـن اختيـار الوسـائل الـتي تمكننـا مـن تحقيـق هـذا الهـدف السـامي ومهمـا كانـت الصـعوبة لأنـه مـن المؤكـد بـأن النجـاح سـيكون عظيمـاً بحجـم المعانـاة والجهـود المبذولـة لتحقيقـه. وهـذا مـا دفعـني لإيجـاد لغـة موحـدة تقـرب مـا بـين الصـم والأسـوياء وتحقـق التفـاهم والتواصـل وتحطـم حـاجز اللغـة الـذي يحـول بـين تفـاهم وتواصـل الصـم والأسـوياء الأمـر الـذي يعمـل علـى تفهـم الأسـوياء لمشـاعر الصـم وتقبلـهم لهـم وبالتـالي ينفـتح عـالم الصـم المنغلق والغامض ......

إن في الأرض مــن الطــرق مــا لم تطأهــا قــدم بعــد ، فهــل سمعــتم مــن ذي قبـل – مـثلاً – عـن فرقـة مـن الأطفـال الصـم للـرقص المسـرحي تقـدم عروضـها الفنيـة في هـارموني مفعـم بالإحسـاس ، هـذا هـو الهـدف الـذي أسـعى مـن أجـل تحقيقـه وادعـوا إليـه بـالرغم مـن أن العمـل في هـذا الميـدان لـيس بـالأمر اليسـير بـل يتطلـب المبـدع صـاحب الإرادة الصـلبة والـذي بمقـدوره أن يحطـم صـخرة الأمـر الواقـع والـتي تفـرض عـزل الأطفـال الصـم عـن المجتمـع وعـن الإبـداع بحجـة أن إعـاقتهم السـمعية تعـوق إبـداعهم ... أن في جميـع مشـاعر الأطفـال الصـم قيـود كالسـجين ولـيس لهـم في غـير الفـن مـن بشـير يـأتي بـالإفراج فبمقـدور الفـن وحـده أن يحـرر الطفـل الأصـم مـن كـل القيـود وسـحقاً لكـل تخلـف ووهـن يشـل إرادة الطفـل الأصـم ، ولـنعلم جميعـاً بأنـه لـيس

في غير الإبداع ما ينقذ من الأوجاع ويخفف أثقال الإعاقة غير أن ولادة المبدع الأصم، تستلزم كثيراً من الآلام ......

إن الإبداع في العمل المسرحي مع الأطفال الصم وإن بدا صعباً ومستحيلاً إلا أنه له مذاقه الخاص وإحساسه المختلف ، كمثل هذا الإحساس الذي يشعر به متسلق الجبال حين يبلغ قمة جبل عال أرهقه طول تسلقه ... كما أن تطوير تعليم الأطفال الصم والنهوض به واستخدام الدراما في التعليم داخل المؤسسات التعليمية الخاصة بهذه الفئة داخل العالم العربي حلم سامي وهدف إنساني نبيل لابد من الاجتهاد لتحقيقه على أرض الواقع ، كما أن مسرح الصم الراقص والهادف المنتشر في مختلف أرجاء الوطن العربي هو هدفنا الأسمى.

ومن أجل تحقيق تلك الأهداف الإنسانية النبيلة فلابد من إيماننا بقدرات هؤلاء الأطفال وبحقهم في الحياة مثلهم مثل الأسوياء على أرض هذا الكون ، كما ينبغي علينا القضاء على الاعتقاد السائد بين العامة بأن الطفل الأصم (إنسان ناقص) غير قادر على العمل أو الإبداع أو على فهم ما يدور حوله ، لأنه إذا كان هؤلاء الأطفال حرموا نعمة السمع والقدرة على الكلام فقد وهبهم الخالق إمكانيات تعادل الإنسان العادي كما وهبهم أشياء أخرى تكيفهم على إعاقتهم فالعدل السماوي يظهر على جميع المخلوقات وحتى المعاقين ، ولابد من إيماننا الكامل بأن الإعاقة ليست ظلماً للمعاق إذ أن الله سبحانه وتعالى قد خلقه وأوجده في هذه الحياة لهدف أسمى من الحياة نفسها وقد تصبح الإعاقة دافع لإثبات الذات ، هكذا علمنا التاريخ.

إن الظلم الحقيقي يظهر في انتهاك حقوق الإنسان الأصم وحرمانه من أبسط حقوقه (الحرية) وكذا تعرضه للإهانة والسخرية والتهميش والعزل وفرض

القيود القاسية عليه ، ولأننا أول من أدرك حقوق المعاقين في تاريخ البشرية فمسئوليتنا أعظم ، فلابد من إيماننا الراسخ بأن الطفل الأصم كأي طفل عادي له ما له من حقوق في الحياة والحرية والتعليم والعمل والثقافة والإبداع ولابد من إعطاء الأطفال الصم حرية التجريب حتى نتمكن من التعرف على إمكانياتهم واكتشاف مواهبهم ورعايتها وتفجير الطاقات الإبداعية المكبوتة بداخلهم وإذا أردنا حقاً دمج الأطفال الصم في المجتمعات العربية بجدية فلابد من السير قدماً نحو تطوير تعليم الصم من حيث إعداد مناهج خاصة بالأطفال الصم بدلاً من تلك المناهج الخاصة بالتعليم العام والتي يتم فرضها على الأطفال الصم ، كما لابد من استخدام الدراما كاستراتيجية أساسية لتعليم الأطفال الصم ...... وكذا الإعلان عن قيام مسرح الأطفال الصم الراقص كخطوة إيجابية لتحقيق سياسة الدمج بدلاً من الصراخ بالدعوة نحو الدمج والتي لا تتعدى كونها مجرد شعارات وردية ، وهمية. أثرها على النفس كأثر المخدر الموضعي دون السعي لتنفيذها أو حتى مجرد التفكير في كيفية تنفيذها في حين أنني أرى أن الأفكار التي لا صوت لها هي التي تدير هذا العالم.

ماذا يفعل الأطفال الصم في عالمنا العربي والسماء فوقهم بهذا الانخفاض ؟

كيف يمكن أن يرفعوا رؤوسهم بكامل قامتها ؟

وكيف يمكن أن يتأملوا الآفاق البعيدة دون فضاء رحب يتيح لهم الانطلاق ؟

إن الأطفال الصم في عالمنا العربي محاصرين مكبلين بالقيود النفسية والاجتماعية التي تفرضها إعاقتهم السمعية ويتحملون كثيراً من المتاعب ويعانون كثيراً من الآلام لعدم تفهم الأسوياء لطبيعة إعاقتهم وتجاهلهم لهم ولرغباتهم ،

وبرغم أن الدين الإسلامي دين التسامح إلا أن الملاحظ أن البيئة العربية والإسلامية تشهد حالة من اللاتسامح وصلت إلى حالة مؤلمة من الصراع بين الأقطار العربية المختلفة أو بين أبناء القطر الواحد كما تظهر هذه الحالة بوضوح في علاقة الأسوياء بالمعاقين الصم وحتى على مستوى الأسرة الواحدة التي من بين أعضائها فرداً أصم من حيث الرفض والعزل والتهميش ، إن الأمر الواقع يقر بهشاشة العلاقة بين الأسوياء والصم بالإضافة إلى الجهل المدقع بعالمهم الخاص ومن دون كبير احترام لظروفهم الخاصة أو إرادتهم وملكاتهم الإبداعية.

بالإضافة إلى أن غالبية الأسوياء من مسئولين وأفراد يقرون حقوق الطفل الأصم من دون التحرك الإيجابي لبذل أي جهود لتطبيقها وهذه الروح اللامتسامحة تعود في جزء كبير منها إلى العلاقات المتخلفة التي مازالت الأسرة العربية تعيش في ظلها ولكن بتطور الحياة يجب أن يتغير هذا المفهوم إلى نوع من التعليم الذي يحض على العدل والمساواة والحوار وقبول الآخر قبل البدء بالرفض.

إنني أعتقد بأن الأطفال الصم في عالمنا العربي يتساءلون في قرارة أنفسهم مع من نقتسم هذه الحياة؟ هل مع الأجساد الحية أم مع الأشياء الجامدة، هل مع الناس الذين يشبهوننا والذين يقاسموننا نفس الهموم والاهتمامات أم مع التماثيل التي تختبئ في أزياء الناس وفي أقنعتهم؟

فليكن اهتمامنا بهؤلاء الأطفال بدافع حبنا الصادق لهم وبقدر جهودهم المبذولة لتحدي إعاقتهم ، فهؤلاء الأطفال فئة مغلوبة على أمرها ويجب علينا مساعدتهم والأخذ بأيديهم في حب وحنان حتى يصلوا معنا وبنا إلى شاطئ الأمان والاطمئنان ويشعر كل أصم بأنه إنسان بل ويشعر بآدميته ، فلنفتح قلوبنا وعقولنا لنور الحضارة الإنسانية ولنتقبل هؤلاء الأطفال وسط مجتمعنا الرحب

قبولاً حسناً ولنحطم تلك السياج الفولاذية التي تحيط بهم وتعزلهم عن الحرية والحياة الطبيعية ، تلك السياج التي صنعتها الأمية والأفكار الرجعية الظالمة ليحل محلها الحق والعدل والحب والرحمة والوعي الكامل بحقوق هؤلاء الأطفال في الحياة وتقدير طاقاتهم وقدراتهم الإبداعية ولتكن هذه سياستنا الحقة تجاه هؤلاء الأطفال إذا أردنا حقاً أن يتجلى العدل والحق على هذه الأرض وتبقى كلمة أخيرة .

" إن من لا يتطور ولا يتقدم ولا يتغير فإنما هو يركد ويتأخر ويتردى إلى أسفل سافلين ... "

obeikandl.com